الزهراء

ج ٩ : م ١ — ١٥ رمضان ١٣٤٣

القديم والجديد

ما من مترادف بدون وجه ، وانما هو تأكيد في المعنى وتأثير على السامع.

نسوق الى منكري المترادف ، وجاحدى فضله في الابانة وضرورته في تبليغ المعني حدثه ، هذا المثلَ الآتى من مقدمة نهج البلاغة ، نأخذه على وجه التصادف

حكى أبو حامد محمد بن محمد الاسفرايني الفقيه الشافعي قال : كنت يوما عند فخر الملك ابى غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضي (الشريف الرضي) أبو الحسن فأعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته وخلّى ما كان بيده من القصص والرقاع وأقبل عليه يحادثه الى ان انصرف

ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم (أخو الشريف الرضي) فلم يعظمه ذلك التعظيم ولا اكرمه ذلك الاكرام وتشاغل عنه برقاع يقرأها فجلس قليلا ثم سأله أمراً فقضاه ثم انصرف

قال أبو حامد فقلت : أصلح الله الوزير هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب

الفنون وهو الامثل والافضل منهما وانما أبو الحسن شاعر . قال فقال لي : اذا انصرف الناس وخلا المجلس أجبتك على هذه المسئلة . قال : وكنت مجمعاً على الانصراف فعرض من الامر مالم يكن في الحساب فدعت الضرورة الى ملازمة المجلس حتى تقوّض الناس . وبعد أن انصرف عنه أكثر غلمانه ولم يبق عنده غيري قال لخادم عنده : هات الكتابين اللذين دفعتهما اليك منذ أيام وأمرتك بوضعهما في السَفَط الفلاني . فأحضرهما فقال : هذا كتاب الرضي اتصل بي أنه قد ولد له ولد فانفذت اليه ألف دينار وقلت : هذه للقابلة فقد جرت العادة أن يحمل الاصدقاء الى ذوي مودتهم مثل هذا في مثل هذه الحال . فردّها وكتب اليّ هذا الكتاب فاقرأه . فقرأته فاذا هو اعتذار عن الردوفي جملته : اننا أهل بيت لا يطلع على أحوالنا قابلة غريبة ، وانما عجائزنا يتولين هذا الامر من نسائنا ، ولسن ممن يأخذن أجرة ولا يقبلن صلة . قال : فهذا هذا

وأما المرتضى فانا كنا وزعنا وقسّطنا على الاملاك ببعض النواحي تقسيطاً نصرفه في حفر فوهة النهر المعروف بنهر عيسى ، فأصاب ملكا للشريف المرتضى بالناحية المعروفة بالداهرية من التقسيط عشرون درهماً ثمنها دينار واحد ، وقد كتب اليّ منذ أيام في هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه . فقرأته وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخشوع والخضوع والاستمالة والهزّ والطلب والسؤال في اسقاط هذه الدراهم المذكورة ما يطول شرحه . قال فخر الملك : فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل ، هذا العالم المتكلم الفقيه الاوحد ونفسه هذه النفس ، أم ذلك الذي لم يشهر الا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس ؟ فقلت : وفق الله سيدنا الوزير ، والله ما وضع الامر الا في موضعه ، ولا أحله الا في محله . . الخ

ففي هذه القصة قوله أعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته . وكلها جمل في معنى واحد يظن القارىء أن بعضها يغني عن بعض ، والحقيقة أن بعضها لا يغني

عن بعض أصلاً وانه لو كان قد قال : دخل عليه الرضي فأجل مكانه . واكتفى بهذه الجملة لم يكن من التأثير على القارىء في وصف درجة تلك التجلّة ما يوجد في قوله : فاعظمه واجلّ مكانه ورفع من منزلته . كلا بين ذاك وذا فرق لا يقدر أن يكابر فيه مكابر . ولو اختار الكاتب الاجتزاء بجملة واحدة من الجمل الثلاث هذه لنقص من المعنى بمقدار ما نقص من اللفظ ولفهم القارىء أن الشريف الرضي دخل على الوزير فقابله مقابلة حسنة فحسب . فلما قال « فأعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته » تمثّل القارىء أو السامع حالة فوق حالة الاكرام المعتاد وتجسّم أمام عينيه ما كان من حركة الوزير من الهزّة الى لقاء الشريف والاحتفال بمقدمه والانصراف عن غيره له ، وبلغت العبارة من نفس القارىء الحد الذي أراده الكاتب والذي لم تكن تبلغه لولا تكرار هذه الجمل الثلاث . وليس ذلك في شيء من الاسلوب القديم ولا في ملازمة طريقة العرب التي خلت والتي صار ينبغي العدول عنها بمقتضى « التطوّر » العصري وما أشبه ذلك من الالفاظ . بل هو من فطرة المرء التي فطره الله عليها والتي لا تفارقه مادام مركّباً هذا التركيب الفسيولوجي الذي هو عليه الآن بحيث أنه لو نطق في القديم أو الحديث أو في الزمن المتوسط ، وباللغة العربية أو بلغة اخرى شرقية أو غربية ، في آسية أو في أمريكا ، لم يمكنه أبداً أن يبلغ من نفس السامع بقوله : دخل الشريف الرضي فاعظمه . مثلما لو قال : فاعظمه وأجلّ مكانه ورفع من منزلته . فان الكلام بمنزلة الارقام فلا تزيد رقما الا زدت عدداً وضاعفت كمية ، وكذلك فلا تزيد لفظة الا زدت معنى وصوّرت كيفية . وليس ذلك في شيء مما يصادم قاعدة « خير الكلام ما قلّ ودل » أو « الايجاز فيه البلاغة » بل هذا وادٍ وذاك واد آخر وكلاهما يلاقي الآخر . ومفصل البلاغة ليس الاقلال ولا الاكثار وانما هو وضع الشيء في محله . وكما أن النرثرة والتكرار في غير طائل هجنة ، فالاسترسال

والاطناب في المقام الذي يجب فيه التأكيد ويُتوخَّى فيه الاشباع والتروية ، هما من مقتضى الغرائز البشرية . فلا تجد لغةً من لغات البشر خالية من هذا الاسلوب

ثم انه يقول في أثناء سرد هذه القصة : فلم يعظمه ذلك التعظيم ولا اكرمه ذلك الاكرام . وهو من الباب نفسه لا يغني فيه القليل عن الكثير مادام المقصود هو الامعان والاستقصاء . فان قولك « امثال لا تعدّ ولا تحصى » هو أدلّ وأوقع من قولك « امثالٌ لا تُعَدّ » فقط ثم يقول « الامثل والافضل منها » ويقول « اذا انصرف الناس وخلا المجلس » وانظر الى قوله « من الخشوع والخضوع والاستمالة والهز والطلب والسؤال » فانه كله يقصد به وصف حالة نفس الشريف المرتضى من أنواع التذلّل وضروب الرجاء ليرفع عنه تلك الدراهم الزهيدة مما يسقط منزلته مهما كان عالماً فقيها متكلما ويعطي الوزير فخر الملك الحق في عدم المبالاة به أو عدم مساواته له مع أخيه . وهذا الوصف لحالة الشريف المرتضى هذه التي انزلت منزلته في عين الوزير لا يتم الا بتكرار كلمات الخشوع والخضوع والهزّ والسؤال . . الخ

ولقد أدرك المعترضون على هذا المذهب استفاضته في العربية بأسرها ، ولحظوا كون الاعتراض عليه اعتراضاً على اللغة نفسها فرجعوا الى القول بمسيس الحاجة الى تطوُّر اللغة بحسب روح العصر الجديد الذي هو عصر الاختصار ، والذي لغته لغة التلغرافات بزعمهم . وكأنهم يريدون أن يقولوا : نعم ان الكلام العربي حافل بهذه الطريقة ، بل المترادف فيه أكثر من حصى البطحاء ورمال الدهناء ولا يخلو منه كلام أحد من البلغاء ولا الفصحاء ولا الكتاب ولا الشعراء ، ولكن هذا مذهب قد آن أن يصبأ الناس عنه ويستبدلوا به ، وأن الوقت قد صار من الضيق بحيث لا يساعد على اطالة الشرح وتكرار الصيغ الموضوعة

لمقامات معلومة ، الى غير ذلك من العلل . فخرجوا من انتقاد المترادف الى انتقاد ما عليه العربية الى يومنا هذا

والحقيقة ان هذا الذي يعنونه من تكرار صيغ معلومة ومقدمات جرى الناس عليها ـ لاسيما العامة واشباه العامة من الخاصة ـ هو من باب الحشو ومن الاطالة بدون طائل مما لا نزاع فيه ومما لم يختص بعصر دون عصر ، بل فضل الايجاز قد عرفه الاولون كما عرفه الآخرون واكثر والاطالة التي يجري عليها الاوربيون سادة العصر في كتاباتهم والاسهاب الذي يسبح في عبابه منشئوهم وفصحاؤهم واشباع المعنى بتكراره بصور مختلفة والوان متنوعة واحيانا بدون اختلاف كثير في الصور ولا بالوان فيها جديد ذو جداء ، هذه طرق قد غلبت على « عصر التلغراف » الذي يقولون انه اهل للاختصار وان الوقت فيه غير منتدح لما يسمونه بالاسهاب

ومن قرأ مؤلفات الافرنج في أي لغة من لغاتهم العديدة عرف أنهم لم يكتبوا بلغة التلغرافات الا التلغرفات . وذلك لان الفصاحة هي المطابقة لمقتضى الحال فكما انه من السخف ان يحرر الانسان التلغراف بلغة الكتاب فمن السخف أيضا ان يجري جميع ما يكتبه مجرى التلغراف ويقول أنا مضطر الى الايجاز في كل ما أقوله لكوننا نحن اليوم في عصر التلغراف . تصور كاتبا يتوخى ايجاز القصر في كل كتاب فيضطر الناس الى تفسير أقواله كما يفسرون الوحي ، أو خطيبا يجتمع الناس لسماع محاضرته فيجود عليهم ببعض جمل قليلة اللفظ كثيرة المعنى قائلاً لهم : ألا لا تعجبوا من قصر خطابي ، فان خير الكلام ما قل ودل . . . . فينصرفون وقد خابت آمالهم وندموا على مجيئهم. اذاً هؤلاء الخطباء الذين يتكلمون ساعة وساعتين وثلاثا في المجالس النيابية في موضوع واحد لا يتعدونه وقضية واحدة يهاجمونها أو يدافعون عنها هم ليسوا على

شيء من البلاغة ولا الفصاحة لان بين خطبهم والتلغرافات فرقاً بعيداً . . . . اذاً المسيو بريان عند ما قام يناضل عن علاقة فرنسا بالفاتيكان بما ملأ عدة أنهار من الصحف الفرنسية انما كان مكثاراً أو ثرثاراً وكان يكفيه من البيان أن يقول : للفاتيكان كلمة في الدنيا مسموعة ولفرنسا مصلحة أن تستفيد من تلك الكلمة، فلابد لفرنسا من أن تكون ذات علاقة مع الفاتيكان . أفليس الايجاز فيه البلاغة ؟ كلا يا اخواننا تطوُّر اللغة لم يكن في تغيير مبادىء الفصاحة والبلاغة ، لان هذه المبادىء انما هي مأخوذة عن الغريزة البشرية ، ومنسوخة عن صورة الانسان كما صوَّره باريه . وبحكم هذه السليقة نفسها الايجاز له مقام والاشباع له مقام ؛ وكل منهما ان حلَّ محل الآخر كان عيباً ظاهراً . والعرب كانوا أسلم أذواقاً وأصفى قرائح وأبصر بمفاصل القول من أن تأتوا أنتم وتهجّنوا ما كانوا يرونه حسناً وتزينوا ما كانوا يرونه معيباً . كلاَّ لاتزال هذه الطبقة من العرب هي المثل الاعلى في البيان والقدوة التي يقتدى بها في الانشاء ، لأن الانشاء قائم في الصدور منبعث عن حالة خاصة في الفطرة ، وليس مما ينشأ عن الاكتشافات العلمية حتى يفوق فيه الآخر الاول . وانما كان العلم بالحقائق العلمية مما يزيد رونق البلاغة ولا يوجدها. فكما ان المصوّر يُخلق مصوراً وانما يزيده المران ومشاهدة مناظر الكون اتقاناً فكذلك البليغ يخلق بليغاً وانما يزيده العلم والاطلاع كمالاً ويكسبانه صقالاً لاغير

فتطوُّر اللغة ليس في أن نعدل بها من الاعلى الى الادنى ، ولا في أن نفسد ملكتها وندخل الفوضى فيها ونقول :هذه ثورة مباركة ! كلاَّ لايثور المرء على الذوق السليم ، ولا ينزع عن الجيد الى الردىء ولا يحاول مخالفة مقتضى النحيزة البشرية ليقال انه عصري جديد النزعة. . .ان راسين وبوالو وبوسويه وفولتير وشكسبير وغوته وشيلر وغيرهم ليس منهم رجل عاش في عصر الاختراعات والاكتشافات هذا بل كلهم قد درجوا منذ قرن وقرنين كما لايخفى فهم بالنسبة الى

هذا العصر ممدودون فى القديم البالي ، ومع هذا فالسعيد السعيد فى فصحاء هذا العصر هو الذى يقدر أن يتحدّى واحداً منهم . وأنّى لكاتب فرنسي معاصر ان يطاول فولتير ، أو لشاعر انجليزي في هذا الزمن ان يساوي شكسبير . وكم المانيّ اليوم يتمنى لو يقدر أن يأتى بلغة كلغة غوته ولو مات من بعدها

ان تطوُّر اللغة انما يكون بادخال المعانى الجديدة فيها ونقل مافي سائر اللغات من الفنون الادبية والعلمية اليها على شرط ان تبرز تلك المعانى في حلل اللغة الاصية ولا تخرج بها الى الركاكة والسماجة فتتحول الي لغةٍ ثانية متنكرة عن اهلها ليس لها من مزية فى باب التجدد سوى مجرد الثورة ، وهذا لايقول به عاقل ، الا من أراد التغيير لاجل التغيير ولاجل أن يخالف فيعرف ، وليقال انه عصري راقي الفكر لاشيء آخر . وما أسمج الاعمال اذا كانت رثاءً وسمعة ...

ومن الغريب ان هؤلاء الذين يريدون أن يحدثوا لغة عربية جديدة بحجة التطور العصري الذي لابد منه تجدهم هم أنفسهم يقتدون بلغة السلف ويجدّون كل الجد في محاكاتها ولا يخلو كلامهم من المترادف الذي يعيبونه وكان عليهم ـ وقد صارت منشآت هذه اللغة قديمة بالية في نظرهم ـ أن يأتونا بمثل من لغتهم هذه العصرية التى يريدون أن يتبدلوا بها اللغة القديمة لغة القرءان والحديث ونهج البلاغة ولغة الجاحظ والهمذانى والخوارزمي ولغة أبى نواس وبشار وابى تمام وهلم جرًّا فكنا نعرف ماهو التطور الذى يعنونه ان كان مرادهم بالتطوُّر هو تلوُّن اللغة بعض الشيء بلون العصر الذى يجدّ عليها ، فقد مضى على العربية أدوار عديدة وازدادت فيها معانىً بازدياد المعارف والحوادث والاحتكاك بالغريب وهذا كله معلوم عند علماء اللغة وامتلأ العصر العباسي بتعريب فلسفات العجم ويونان والهند وازدادت اصطلاحات فى التعبير العربي لاتحصى ولكن كل هذا التعريب وهذه الاصطلاحات لم تخرج اللغة قيد شعرة عن أسلوبها الاصلي الاصيل ولا

اختأت بها قاعدة ولا تحولت منها سحنة وبقيت فيها اقوال السلف المشار اليهم هي معيار الفصاحة ومثال البلاغة وهي الينبوع الذي يستقي منه محررو التراجم العلمية كما ان فصاحة يونان والرومان هي الينبوع الذي يمتح منه كتاب اوربا لهذا العهد . يريدون أن يجعلوا قديماً وجديداً وما ثمة قديم وجديد وانما ثمة لغة عربية ولغة غير عربية . وما نراهم هم في أثناء دعوتهم الى مايسمونه بالجديد الا محافظين على القديم لانني مارأيت بأيّ شيء يفترق نسق كلامهم عن نسق الآخرين ؟

لا يوجد في العالم قوم بنوا اصول اجتماعهم على القواعد العلمية الحديثة بدون اعتبار لسواها مثل الالمان ومهما طمعنا ان نرقى الآن فلا نطمع في الحياة العلمية ان نفوتهم ومع هذا فلغتهم هي اللغة التي تكلم بها غوته منذ اكثر من قرن لا بل اللغة التي ترجم بها لوثير التوراة منذ اربعة قرون . وبالجملة فإننا نرجو ثائري لغتنا هؤلاء وقوضوية الانشاء العربي ان لايخلطوا الفنون والصناعات بالآداب والاذواق وان يجعلوا الثورة على الخرافات والسخافات حيث جميعنا ثوّار لانحتاج فيها الى دلالتهم فلا يمدوا ثورتهم الى الذوق السليم والرأى القويم فتخمد حالاً بسيف المنطق

شكيب أرسلان

مرسيل : ٢٥ مارس سنة ١٩٢٥

﴿ تاريخ ولادة الشيخ عياد ﴾

لما اطلع الاستاذ إغناطيوس كراتشقوفسكي على تاريخ حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي في صدر العدد السابع من الزهراء كتب من مدينة لينين غراد (روسيا) الى صاحب السعادة أحمد تيمور باشا يخبره بأن في الكلية التي كان الشيخ عياد من أساتذتها أوراقاً رسمية تتضمن تاريخ ولادة هذا العالم المصري وهي سنة ١٢٢٥ هـ (١٨١٠ م) . فنشكر للاستاذ كراتشقوفسكي عنايته بذلك